ومن أيقظها من سُباتها ثمّ نظّمها ودرّبها وأطلقها جيوشاً جـرّارة تخوض ألـف معـركـة على ألـف جبهـة، فتنتصر وتنكسر، وتشتدّ وتضعف، وتشبع وتجوع، ولكنّها أبداً لا تستسلم، بل تمضي في نضالها ما بين كرّ وفرّ وهجوم ووجوم، وأي معنى لذلك النضال؟ وهل من هدف بعيد يرمي إليه؟ وما هو ذلك الهدف؟ ومن ثمّ فلماذا نؤتمن على تلك المواهب والقوى إلى حين، ثمّ هي تُستردّ منّا برغم أنوفنا؟ ألأنّنا ما أحسنّا فهمها؟ أم لأنّنا أسأنا استعمالها؟ ومَنذا يدري أيّنا يحسن استعمالها وأيّنا يسيئه؟ وهذه الظلال الملازمة لنا ألعلّها ذكريات لا أكثر؟ فما بالُنا نُقبل على بعضها ونهرب من الآخر؟ ما بال هذا الظلّ يؤنسنا ويطربنا وذلك يوحشنا ويتركنا وكأنّ النفس منّا في مناحة؟ أهو الوجدان وحده يكفينا بشيراً بالخير ونذيراً بالشرّ أم أنّ في الإنسان هادياً أصدق من الوجدان؟ ما للخير والشرّ في صراع سرمديّ؟ أحقّاً أنّهما يصطرعان أم أنّنا نحن في صراعنا بعضنا مع البعض ومع الطبيعة في ذهول وبحران حتى ليتراءى لنا أنّه صراع تشاركنا فيه سائر الأكوان؟

لعلّ أطيب ما يجنيه إنسان من خريف عمره هو الشعور الهادىء المطمئنّ بأنّ قلـوبـاً كثيرة تنبـض في قلبـه نبـض الصداقة والأخوّة والمحبّة، وأنّ جذوره قد امتدّت بعيدة